البحث العلمي والفقهي والتحقيق والاجتهاد
الحاجة إلى ذلك وآدابه

سماحة الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي
رئيس ندوة العلماء بلكنهو - الهند

أبيض

بسم الله الرحمن الرحيم

لم تكن كنوز المعرفة والمصادر العلمية في يوم ما احتكاراً لطبقة اجتماعية دون أخرى وما كان يجب ذلك، أما فيما يتعلق بالإسلام فإنكم تعلمون أنه ليس هناك طبقة تتوارث الكهنوت أباً عن جد.

إن مفاهيم الكهنوت هي من صلب العالم النصراني وغريبة في عالم الإسلام، وإذا ما وُجدت عبارات أو تعابير كهذه في كتابات بعض العلماء فمرد ذلك فقط إلى التقليد الأعمى للغرب، أصبحت عبارة "رجال الدين" في أيامنا هذه شائعة حتى بين الكُتَّاب العرب! وبدأوا يستعملونها بنفس المفهوم الذي تعنيه كلمة "الكهنة" في العالم النصراني، أما الكُتَّاب الحذرون المتمسكون بالدين، والذين يريدون التعريف الصحيح بالفكر والروح الإسلاميين فقد اجتنبوا بحذر شديد استعمال عبارات كهذه.

وفي الوقت الذي أعبِّر فيه عن شعوري بالغبطة للاهتمام المتزايد من قبل المراكز العلمية بالعلوم الإسلامية، وبالفقه الإسلامي والقضايا الإسلامية المعاصرة، أود أن أضيف إلى أنه على الرغم من أنه لا مكان للقساوسة والكهنوت في الإسلام، إلا أنه كان دائماً لدينا علماء ذوو خبرة واختصاص، ولم يعد بإمكان المرء أن يضطلع في كل شيء نظراً للتوسع الطارئ المحسوس الذي حدث في شتى فروع خاصة من الدراسات ولم يعد علماؤها يسيطرون على كافة فروع المعرفة.

ففي أوروبا بدأت عملية التقدم عندما كرس الناس أنفسهم للتخصص في فروع خاصة من الدراسات ولم يعد علماؤها يسيطرون على كافة فروع المعرفة، وأعتقد أن هذا المبدأ - وحتى وقتنا الحالي - متبع في أوروبا أكثر منه في الشرق، وهناك يعترف الخبراء في أي مجال كان - وبدون تردد - بمهنة أو بمجال دراسة أنه لا يدخل ضمن مجال اختصاصهم، والآن علينا نحن أيضاً أن نصمم لتحديد مساعينا العلمية والفكرية لتقتصر على موضوع أو فرع دراسي خاص بمفرده.

مستوى الثقافات:

إنني فخور بأن أكون رفيق درب .. وأنتهز ذلك لأتجرأ فأقدم بعض الاقتراحات:

ربما توافقون معي على أن مستوى الثقافة يتدنى في وسطنا، ولقد لمست ذلك في الغرب أيضاً، وقد قال لي بعض العلماء هناك: إن الفساد تسرب إلى دراسة العلوم الشرقية أيضاً .. إن الجيل الحالي من العلماء يفتقر إلى المثابرة والانكباب، وذلك لأسباب عديدة بعضها سياسية وأخرى اقتصادية.

السر في نمو الاستشراق:

هناك بعض البواعث وراء كل فرع من فروع المعرفة، ولقد رفعت هذه العوامل الاستشراق في يوم من الأيام إلى القمة، وباستثناء القليل من العلوم الطبيعية والاجتماعية. فقد كانت الدراسات الشرقية تحظى بشرف عظيم، وكان المستشرقون بكتاباتهم يتمتعون بأهمية بارزة، إذ كان العامل القوي الذي يعمل عمله وراء ذلك هو عامل الإمبريالية IMPERIALISM(١) ونحن مسرورون على أن ذلك العامل لم يعد فعالاً، وقد كانت أغنى بلدان الشرق تحت حكم المسلمين، وكان الغرب ينظر إليهم نظرة غيرة وحسد لما عندهم من خيرات.

أرادت الإمبريالية إقامة مستعمرات جديدة، لذلك كان من الضروري لها، دراسة الخصائص القومية لتلك البلدان، وإحداث التشكيك في مصادر شعوبها العلمية والدينية وعدم الثقة بها لإنشاء "مركب النقص" في نفوس الدارسين والباحثين والشباب المثقف في تلك البلاد، فيكون ذلك مساعداً على بسط النفوذ الأجنبي في هذه البلاد لأن النفوذ الثقافي والخضوع العقلي والعلمي يسبقان النفوذ السياسي، وعلى الأقل يساعدان عليه ويمهدان الطريق له.

ولقد كان هؤلاء المستشرقون هم طلائع المستعمرين .. فقد لقوا رعاية

---

(١) المقصود بها بسط النفوذ عن طريق الشركات والمؤسسات الاقتصادية، والنفوذ السياسي.

الجهات الرسمية ووضعت أموال طائلة تحت تصرفهم، وكانوا يُستقبلون بحفاوة وتقدير في بلاط الملوك ورؤساء الدول .. لقد زال هذا العامل من الوجود، أما الدافع الآخر فقد كان الكسب الاقتصادي الذي فقد فعاليته هو أيضاً، فقد خضعت البنية الاقتصادية للتحول، بحيث لم تعد مواصلة الدراسات الشرقية تدر النفع المادي كما كانت من قبل.

التفرغ:

إن روح التكريس قد ضعفت بين علماء عصرنا ومثقفيه، فقد ضعف حب المعرفة، ونضب معه معين القدرة على الجد والاجتهاد، وإنني لا أشير بذلك إلى أي مدرسة أو مركز علمي دون آخر، إنما هي ملاحظة عامة كما وجدتها، ويلمس في كل مكان - تقريباً - إن التكريس الكامل الذي كان يتميز به علماء الماضي لم يعد له وجود في وقتنا الحاضر.

إن الأسباب تتعلق بالسياسة والاقتصاد، والأدب والأخلاق، سواء بسواء، وليس من الممكن أو من الضروري مناقشتها هنا، والأمر الواضح جداً هو أن حب المعرفة الذي يسمو فوق كل شيء، ويجعل الإنسان لا يبالي حتى بالحاجة إلى الطعام والملبس، فقد أصبح ذلك الحب نادراً إن لم نقل قد همد.

المعرفة من أجل المعرفة:

كان عالم بمفرده - فيما مضى - يقوم بعمل أكاديميات (مجامع) علمية بكاملها، أما الآن فقد أقيمت الجمعيات والمؤسسات الضخمة، لكن مردودها - إجمالاً - غير مشجع وقليلاً ما تقوم بأعمال أصيلة مبتكرة.

إن ما نحتاجه هو رفع مستوى الثقافة والرسوخ العلمي والتضلع الفقهي، وما المعرفة إلا كد وجني ثمرته، وعطش وارتواء، وجوع وشبع.

على المرء أن يكرس كامل جهده، لعمله وأن يعتبره مكافأة في حد ذاته، لا رئاسة فرع معين في هذه الجامعة أو تلك.

إن علماء عصرنا الحاضر يستعجلون لجمع المحصول، وينصب اهتمامهم الأكبر على الشهرة والترفيع في الخدمة وزيادة التعويض، وإن

قسماً كبيراً من طاقتهم يُصرف في السعي وراء هذه الأغراض، وإن الربح المادي هو الأساس في نظرهم، ولا بد أنكم سمعتم بمبادئ كثيرة، والمبدأ الجديد الذي ينتشر في مؤسساتنا الثقافية، ألا وهو المهنية Careerism.

الظمأ للمعرفة يجب ألا يكون حالة عابرة:

وشيء آخر هو: ألا يكون الاهتمام بالنشاطات الثقافية اهتماماً عابراً، فنختار موضوعاً للبحث فيه ثم نجتره بسرعة فنلقيه خارجاً، كحيوان يجتر فلا يكون هناك التزام بالموضوع ولا تعلق ثابت به، فإذا ما انتهى البحث نفضنا أيدينا من الأمر كله، ولنذكر قول إقبال:

مقصود هن سوز حيات أبدي هي   يه إيك نفس يا دو نفس مثل شرر كيا؟

«إن هدف الفن هو لهب الحياة الخالدة، وليس فورة نشاط أو اثنتين تختفيان كالشرارة».

منابع الدراسة الإسلامية تكمن في الإيمان:

ربما تقرأون بالطبع في بعض البحوث عن الحاجة إلى الاجتهاد في العلوم الإسلامية وفي القضايا الدينية المعاصرة، وكلنا نوافق على ذلك، لكن لماذا أغلق بابه وما أسباب ذلك وما مدى صحته؟ فتلك قضية أخرى. وسوف أشير إلى أن أصول العلوم الإسلامية تكمن في الدين، إنه المصدر الرئيسي لها، لذا يجب أن نختلف في موقفنا حيالها عن المستشرقين، وألا يكون هذا الموقف أكاديمياً بأن نقوم بمناقشتها فقط دون أي شعور بالالتزام، وينبغي لنا أن نعتقد بها شريطة أن تكون مرتبطة بأركان الإيمان وتهذيبها في حياتنا العملية، ولقد سمعت في طفولتي أن عشرة أرطال من الحكمة ضرورية لرطل واحد من المعرفة (برائي يك من علم ده من عقل بايد) وإلا لا يتمكن المرء من استنتاج فائدة حقيقية من المعرفة ولا استخدامها بشكل ملائم، وسأدخل تحسيناً على ذلك وأقول: إن التقوى يجب أن يكون موجوداً أيضاً بشكل متناسب مع البحث، لأن القضية هي قضية العلوم الإسلامية ذات الصلة الوثيقة بالدين، ولا نستطيع أن نخضعها للتشريح Postmortem كجثة،

أجل: ليس من العدالة أن يكون كذلك، فيجب أن يكون النقد خالياً من الازدراء والسخرية.

إن أولئك الذين هم على وعي بمسؤوليات الدراسة والبحث، وتغير الأفكار والآراء، لا يقدمون آراءهم وأحكامهم بطريقة جازمة موثوقة، ولا يفسرون نظرية كما لو أنها كانت آخر كلمة في الموضوع، وينبغي أن يكون موقفهم كمن توصل إلى نتيجة ظهرت بأنها صحيحة في تلك اللحظة، يجب علينا أن نمارس الكبح في تفكيرنا، وأن نتعلم إبداء الاحترام والتقدير للعلم وللشخص الذي كرَّس حياته وطاقته له.

تجنبوا إحداث الفوضى:

يتسرع بعض الناس في التعبير عن آرائهم، ثم لا يلبثون بعد فترة أن يتراجعوا عنها! لا شك بأنهم يؤدون واجبهم، ولكن ماذا عن أولئك الذين كان عليهم أن يغادروا هذه الدنيا وهم على ضلال من جراء اتباع أولئك الناس؟! وتصبح المشكلة خطيرة عندما تتعلق هذه الآراء بالعقيدة والدين، لذا ينبغي ألا ينفذ الصبر في التعبير عن آرائنا، وخاصة عندما تخص عالم الدين، وعلينا أن نفكر فيها ملياً، ونتفحصها، ونعرضها على أهل الخبرة وننتظر حكمهم، حينذاك فقط يمكن أن تُنشر.

إن عصرنا هو عصر الفوضى، والإنسان هادئ يميل إلى الإهمال بطبيعته، فحضارة العصر والخطوات السريعة للتقدم العلمي، والارتفاع المستمر في مستوى المعيشة، يقضي به إلى أن يكون أكثر حباً للراحة وتعرضاً للفوضى، وعلينا والحال هذه أن نحجم عن قول أشياء يمكن أن تزيد في الاضطراب الفكري عند الناس.

التغير والثبات للزمان:

يفترض عموماً، أنه ليس للزمان ثبات أو دوام، بل إنه اسم آخر للتغير والتحول، ولكن ليس الأمر كذلك، إن الزمن مركب من الاثنين - التغير والاستمرار، وإذا اختل هذا التوازن كأن يتحكم الاستمرار بالتغير، أو يتسلط التغير على

الاستمرار، فإن ذلك سينتج آثاراً خطيرة تنعكس على المجتمع والحضارة، إن المجتمع البشري بحاجة إلى التناسب حتى أكثر من أي مركب كيميائي.

إن الزمن له من القدرة على التغير ويجب أن يتغير، وذلك ليس علامة ضعف أو نقص، إنما هو قانون الحياة، وكما قال إقبال: إن الحياة دائمة الحركة، دائمة الانسياب، دائمة الشباب، وإن الحياة الخالية من القدرة على النمو والتطور، يمكن أن تكون أي شيء آخر إلا الحياة.

إلى جانب ذلك فإن مقاومة التغير هي - أيضاً - صفة متأصلة في الزمن، وإن مظاهر التغير تبدو لنا بوضوح، وكلنا نشعركم تحول الزمن بشكل كبير، إننا في مجريات الأمور العادية لا نوفق في الإدراك إدراكاً تاماً للصراع الذي يقوم به الزمن ليحافظ على خواصه الجيدة والسليمة، وطبيعته وصفته الحقيقية، وإن ذلك يتطلب مجهراً خاصاً.

خذوا النهر الذي يمثل نموذجاً مثالياً للحركة .. ما من موجتين من أمواجه متماثلتان على الإطلاق، وبالرغم من أمواجه العابرة فإنه موجود مكانه منذ آلاف السنين، محتفظاً بكل خصائصه، واسمه واتجاهاته، فأنهار دجلة والفرات والنيل والغانج Ganga وجامونا كلها هي نفسها منذ أن كانت في العصور الغابرة.

إن الزمن ساكن بالإضافة إلى كونه متحركاً .. كلا هاتين الصفتين جوهريتان بالنسبة له، فهو - بدون أي منهما - لا يستطيع الاحتفاظ بفائدته بنفس الطريقة، لأن القوى السالبة والموجبة تعمل عملها في الأشياء الحية وغير الحية الموجودة في العالم، وعن طريق أفعالها وردود فعلها تحقق هذه الأشياء قدرها.

الدين هو حارس الحياة:

لا يمكنني - أبداً - أن أقبل وضعاً يستجيب فيه هذا الدين لكل تغير، ولا يمكن أن توافقوا أنتم على ذلك أيضاً، لأن الدين ليس مقياس حرارة Thermometer يقتصر عمله على تسجيل درجات الحرارة، ولا هو بالأداة التي

ترصد اتجاه هبوب الرياح، لا يمكن تعريف الدين بهذه العبارات ولا يمكن أن يصير إلى أداة آلية غربية، وليس بيننا واحد يريد من الدين أن يعمل كسجل لتغيرات الأزمنة، وإن ديناً وضعياً مزعوماً لا يمكن أن يتحمل هذا الوضع فكيف بدين منزل؟

إن الدين يقر التغير كحقيقة واقعة ويعطي أكمل مجال لسير الأمور من أجل تحول صحيح سليم، الدين يتقدم مع الحياة يداً بيد، ولا يواكبها فقط كتابع لها، بل إن وظيفته أن يميز بين تغير سليم وآخر غير سليم، وبين نزعة هدامة وأخرى بناءة، ويجب أن يقرر الدين فيما إذا كان التحول نافعاً أو ضاراً بالبشرية أو بأتباعه على الأقل.

وبينما يتمشى الدين مع الحياة الديناميكية جنباً إلى جنب من جهة، فإنه يعمل حارساً وحامياً لها من جهة أخرى، وتجب عليه مهمة المراقبة والضبط أيضاً، وليس من مهمة الوصي أن يدعم كل ما يفعله القاصر الموضوع تحت وصايته ويؤيد كل ميوله الجيدة منها والسيئة، أو أن يصادق بختم الموافقة على كل شيء يسعى وراءه، فهو يمتلك ختماً واحداً، وحبراً واحداً ويداً واحدة فقط، ومن شأنه أن يلصق طابعه على أي وثيقة أو صك، بل يجب عليه أن يميز ويختار، أجل إنه يفحص (الوثيقة) أولاً ثم يصدر حكمه، فإن وجد فيها خطأً أو ضرراً حاول الدين أن يتركها برفق – إذا أمكن – أو بقوة إذا اقتضى الأمر ذلك، وإذا عرضت عليه وثيقة واعتبرها ضارة بالجنس البشري فهو لا يمتنع عن تصديقها وختمها فقط، بل يكافح لمقاومتها، وهنا يكمن الفرق بين الدين والأخلاق، فالدين يرى من واجبه ومسؤوليته ضبط النزعة الخاطئة وردها، بينما تكتفي الأخلاق بالإشارة إليها وإظهارها.

عبقرية علماء الفقه في الجمع بين ما يقتضيه التطور العصري وخلود مقاصد الشريعة الإسلامية وتقديمها:

وقد تجلت عبقرية فقهائنا وعلمائنا الراسخين المتبصرين، في إعطاء التطور العصري، وتقدم المدنية وتغير الأعراف والمقاييس، وحدوث الآلات

والوسائل الحديثة، ونشوء المشكلات والأزمات، والتجارب الجديدة حقها في الدراسة والبحث وإصدار الحكم الشرعي ومراعاتها في الفتاوى والأحكام الشرعية، وفي المحافظة على مقاصد الشريعة، والإيمان بخلود الدين الإسلامي وكونه هو الدين الأخير المرتضى الذي لا يُقبل سواه، والإيمان الجازم الواعي بقوله تعالى: (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا)(١). يحتاج ذلك إلى استعراض تاريخي واسع دقيق للمكتبة الفقهية العالمية الممتدة على مدى التاريخ الطويل ومساحة العالم الإسلامي الواسعة، إذا تم ذلك العمل بأمانة ودقة، وأناة وصبر، وحياد وإنصاف، تجلى نوع من العبقرية العلمية الدينية، والذكاء التشريعي النادر، كان موضع إعجاب واستغراب وكان في صالح البحث الفقهي والاجتهاد الذي يحتاج إليه هذا العصر والمجتمع الإسلامي الواسع.

نظرة عجلى على الإنتاج الفقهي
في شبه القارة الهندية في العصر الأخير:

ولا بأس بإلقاء نظرة عجلى على الإنتاج الفقهي الهادف في شبه القارة الهندية في الماضي القريب، أما قائمة المؤلفات والموسوعات العلمية الفقهية، ومجموع الفتاوى، والبحوث الحديثية والفقهية المقارنة، فهي أطول من أن أسرد أسماءها في هذا الحديث المستعجل القصير وليرجع في ذلك إلى كتاب "الثقافة الإسلامية في الهند" لوالدنا العلامة السيد عبد الحي الحسني (رحمه الله تعالى) طبع ونشر مجمع اللغة العربية في دمشق.

وأكتفي هنا بالإشارة إلى كتاب "إعلاء السنن" في فقه الحديث تأليف العلامة الشيخ ظفر أحمد العثماني بتوجيه المربي الكبير والعالم الجليل سماحة الشيخ أشرف علي التهانوي رحمه الله تعالى، وقد تم هذا العمل التأليفي في ٢١ مجلداً ضخماً، وقد كانت محاولات علمية جدية للبحث عن الحلول الفقهية لبعض القضايا الشاغلة المعقدة في الحياة الاجتماعية والزوجية، نذكر منها على سبيل المثال «الحيلة الناجزة للحليلة العاجزة»

للمربي الكبير الشيخ أشرف علي التهانوي رحمه الله تعالى و«بوادر النوادر» له كذلك، و«جواهر الفقه» للعالم الكبير مفتي باكستان الأكبر الشيخ محمد شفيع الديوبندي في ثلاثة مجلدات، وأحكام القرآن له، وعلم الفقه للمصلح الكبير الشيخ عبد الشكور اللكهنوي.

وأضيف إلى هذه القائمة التي تشمل مؤلفات علماء المذهب الحنفي، كتابين لكبار علماء الحديث وهما الفتاوى النذيرية للعالم الكبير ومدرس الحديث الشهير الشيخ النذير حسين الدهلوي، والفتاوى الثنائية للعالم المناظر الكبير الشيخ ثناء الله الأمر تسري، لإيتاء كل ذي حق حقه وحرصاً على الجمع والشمول.

هذا عدا مجموعات كبيرة للفتاوى مثل «عزيز الفتاوى» للمفتي عزيز الرحمن رحمه الله تعالى المفتي الأكبر في دار العلوم ديوبند، في اثني عشر مجلداً، و«إعداد الفتاوى» للشيخ التهانوي في ستة مجلدات كبار، و«الفتاوى الرحيمية» للمفتي عبد الرحيم اللاجبوري في ستة مجلدات أيضاً.